دجلة فى الخريف

بكَرَ الخريفُ فراحَ يُوعِده ... أن سوف يزبده ويُرعده
وبدت من « الأرماث » عائمةً ... فيهِ ، طلائعُ ما يُجنِّده
وكأنَّ من زَبد الرمال على ... أمواجهِ طِفلاً يهدهده
واستثقل النوتىّ مجذَفه ... بَرِماً بمقبضه يجدده
وتحفزّت شُمّ الجبال له ... بتلوجها كِسَفاً تهدده
ظلت تَعُدّ خطاه ترقبه ... فى الصيف مزدهراً وتحسده
جرداء وهو يضج ملعبه ... ظلماء وهو يشبّ موقده
خرساء والأنغامُ تُرقصُه ... وكأنّها بالموج تَرفُده
تتعثر الأجيالُ خالدةً ... فيها ويحضنها مخلده
« دَاوُد » بالمزمار يُوقظه ... وينيمُه بالعود « معبده »
و « اِلهيم » تخزنه وتنهبه ... و « الغيد » تنزله وتصعده
ألقت إليه من مفاتنها ... ما ليس إلا الله يشهده
ورمت له يقظان من مُتَعٍ ... ما نحن فى الأحلام ننشده
و « النجم » حارسها وحارسه ... و « الظل » موعدها وموعده
الآن أُدرِك سر زفرته ... إذ لم يعد سرًّا تجلّده
فلفقده « نفساً » تنفّسه ... ولذكره « نهداً » تنهّده
يتعقب المسكين موجتها ... عبثاً بموجته وتطرده
لم يدر حتى الآن شيمتها ... حسب الهوى نغماً يردده
امسِ استطابت فيه مقصدها ... واليوم ـ أهون منه ـ مقصده

*

لو يستطيع لردّ خضرته ... وبرغم سفحيه تورده
وبرغمه أن حُبَّ خابطه ... للزارعين و ذُمَّ مورده

ما سرّه ـ والبيض تنكره ـ أن المراعى الخضر تحمده
فالذكريات الغر يُشهِدُها رقراقه الصافى وتُشهِدُه
متطامن لم تُخْشَ صولته لكن تضيق بصائل يده
فمن « الشمال » يد فتنهضه ومن « الجنوب » يد فتقعده
كالناس للحُفَرات مرجعه ومن النطاف الترر مولده
وخضوعه ـ كخضوعهم أبداً ـ للغيب ، أنّى سار يرصده
والفصل دون « الفصل » ينعشه والأرض دون «الأرض» تسعده
لغبٌ ، فلا « الإمساء » يوسعه عطفاً ، ولا «الإصباح» يُنجده
النجمُ أعمى لا يرافقه . و الطير أخرس لا يغرّده
متحيِّر ، لا يستبحمُ به فلكٌ ، ولا الأضواء ترشده
وكان محتشد الضباب به باب بوجه الشهب يوصده
والشمسُ فاترةٌ تذكّرهُ وضح السنا ، أيام توقده
أيام تنفخ فى قرارته من روحها نفساً تجدده
والغيم يحلف لا يبارحها و الريح تحلف لا تبددُه
و البدر حتى البدر يوحشه فى يوم محنته ويُفْرِدُه
هذا الذى ما كان مثلهما للصيف من مثلٍ يخلّده
كانا يربّانِ الغرام معاً ذا يصطفيه ، وذا يهدهده

*

لم يبق من هَرَج الربيع به إلا الذى قد فات أجوده
ومن « العريش » على شواطئه إلا خُشيبات تحدِّده
ركبٌ تحمل عنه « ناشطه » وأقام « عاجزه » و « مقعده »
و السامرون انفض عرسهمو لا جِدّه أغنى ولا دَدُه
حجَل الغُراب على مواقدهم وعلى الرماد بها يُبلّده
ومن الحمام أظله « زَجِلٌ » كلف بلحن « الصيف » ينشده
صك المسفّة يدّنى عطشاً وتموُّج الآذىّ يبعده
متسائلاً : لِمَ حال ريِّقه عن حُرِّ لونٍ كان يعهده
وعلى الضفاف البَطُّ منكمش لاهٍ بذاوى النبت يعضِده

شُعْث النسيل كأنّ عابسةً ... مجنونةٌ واحت تبدده
ما الصيف سبّط من جدائله ... جاء الخريف له يجعده
بادى الخمول يؤوده عنق ... فى أمس من زهو يمدده
وكأنه إذ خيف مَسْبحُه ... مترهب قد سُدّ « مَعبده »
أترى يعود غداً لملعبه ... أم لا يكون كأمسه ـ غده
وتهضّمَ النوتى زورقه ... بـ « القار » ـ بعد الغيد ـ يحشده
يقتات من كِسَرٍ يثبتها ... فى « اللوح » أو « حبلٍ » يمسّده

*

لم أدر لو لم تُنْبِنى سُرُجٌ ... فى شاطئيه : أين مرقده
ومضتْ ، فقلت : النوم أعوزه ... وجفونه رُمْداً تسهده
وخبتْ فقلت : غفا وإن صدًى ... فى السمع من زَفْر يصعده
وكأن تابوتاً يعدُّ له ... « ملاّحه » فيما ينضده
وحسبت مزماراً يُشَيّعهُ ... للقبر ، مسماراً يشدده
وتجاوُبَ الأجرار قافيةً ... سمحاء باكية تمجده

*

يا صامتاً عيًّا ومنطقه ... متفجر « الينبوع » سرمده
تهفو فرائد عقده جزعاً ... من سِرِّها ، وتهيمُ شرّده
وتثير فيه الذكريات شجى ... يعيا به ، فيخور أيّده
وموكلا بالدهر ، يزرعه ... فى شاطئيه ، ثم يحصده
يا « شط » أنتَ أعز منقلباً ... فى « الناطقين » بما تخلده
وكذا الطبيعة : فى عناصرها ... « جن » حبيس الروح مجهده
نرتاد جامدها نفجره ... و « عقيم » غامضها نولده
فلعل ذا : ولعلها لغة ... من غير ما جَرَسٍ نعوده
ولربما ضحكت « بسائطها » ... هزواً بنا مما تعقده

[بغداد]

محمد مهدى الجواهرى